

المخطوط المغربي و إشكالية التحقيق

المخطوط التواتي نموذجاً

أ. أحمد جعفري

قسم اللغة العربية و آدابها (جامعة أدرار)

بسم الله الرحمن الرحيم و الصلاة و السلام على أشرف خلق الله أجمعين
أيها الأخوة الكرام السلام عليكم و رحمة الله تعالى و بركاته و بعد،
سيكون حديثنا مخصصاً في هذه المداخلة للمخطوط في منطقة توات
كنموذج لبعض ما هو عليه المخطوط المغربي بشكل عام. و سأحاول من خلال
هذه المداخلة أولاً ان أرسم معالم الخريطة التواتية في اصطلاحاتها و حدودها
الزمكانية و هجرة العلماء إليها ثم احاول بعد ذلك إلقاء نظرة عامة على إنتاج
المنطقة من المخطوطات و الأسباب المؤدية إلى إنتشارها ثم إندثارها لنخلص أخيراً
إلى تحديد جملة من العوامل و الأسباب التي أدت إلى إبعاد المخطوط عن اعين
الدارسين و الباحثين من جهة و لبعض الأسباب و العوامل التي نراها كقيلة بإخراج
مخطوط المنطقة من عزلته إذا خلصت النوايا بإذن الله.

و في البداية أقول إن مصطلح توات تاريخياً يطلق على مايعرف حديثاً
بولاية أدرار و ما جاورها و هو إسم جامع لمناطق فرعية أخرى تمتد من الشمال
حيث منطقة قورارة التي تبدأ من قصر تيلكوزة حتى ضواحي تسابيت ثم منطقة
توات الوسطى من حدود تسابيت إلى رقان ثم منطقة تيدكلت من رقان إلى فقارة
الزوى بعين صالح.

و لقد اختلف المؤرخون في أصل التسمية (توات) و تاريخ إختطاطها بل و
حتى في رسم حدودها، فهناك من إعتبر "أن السبب في تسمية هذا الإقليم بتوات
على ما يحكى أنه لما إستفتح عقبة بن نافع الفهري بلاد المغرب ... وصل خيله

الفضاء المغاربي _____ المخطوط المغاربي و إشكالية التحقيق
المخطوط التواتي نموذجاً

توات و دخل بتاريخ 62هـ فسألهم عن هذه البلاد يعني توات و عن ما يسمع ويفشى
عنها من الضعف هل تواتي لنفي المجرمين من عصاة المغرب ينزله او يجليه بها
فأجابوه بأنها تواتي فأنطلق اللسان بذلك أنها تواتي فتغير اللفظ على لسان العامة
لضرب من التخفيف " (1)

و هذا الرأي إنفرد به العالم محمد بن عومر (القرن 13هـ) في حين نراه يورد
إلى هذا الرأي رأياً آخر و هو الرأي الذي أسهب في تفسيره الشيخ سيدي البكري (ق
14 هـ) حيث يقول "في سنة 518هـ حيث غلب المهدي (2) الشيعي سلطان
الموحدين علنا المغرب بعث قائديه علي بن الطيب و الطاهر عبد المومن لأهل
الصحراء و أمرهما بقبض الأتوات... فعرف أهل هذا القطر بأهل الأتوات" (3) و
يعلق البكري على هذه الرواية و يقول : " و هذه الرواية أصح ولهذا اللفظ مسند في
العربية قال في المصباح (4) : التوت هو الفاك هـ فعرف أهل هذه البلاد بأهل
الأتوات فحذف المضاف و أقيم المضاف إليه مقامه... فصار توات بعد حذف
التعريف و المضاف... و صار هذا الإسم على هذا القطر الصحراوي من تبتلكوزة
إلى عين صالح" (5) و هذا التفسير إعتمده كثير من المؤرخين و اعتبر الرأي
الأرجح في المسألة و إلى هذا أيضا راح البعض ينحى بالكلمة نحو بعيدا عن كل
هذا و ذاك فالسعدي في تاريخه (6) يربطها بإسم علة أصابت الرجل الأول الذي
دخل المنطقة أما المؤرخ مولاي أحمد الإدريسي (7) وإضافة إلى إعتماده التفسيرات
السابقة يذكر أيضا أن اللفظ هو من الفعل واتى يواتي لأنها كانت تواتي للعبادة. و
في كل يبقى الاختلاف في أصل اشتقاق الكلمة نفسها هل هو من الفعل واتى يواتي
أو هو إسم للمغارم أي الأتوات أو هو غير هذا و ذاك و إنما هو اسم أعجمي
يحمل دلالات خاصة تبعا للغة الأم تكررورية كانت (8) أو تارقية (9) أو
عربية.

الفضاء المغاربي _____ المخطوط المغاربي و إشكالية التحقيق
المخطوط التواتي نموذجاً

و المؤكد في كل هذا أن منطقة توات ضاربة في أعماق التاريخ و قد
أرجعها المؤرخ الفرنسي برنارد سافرو (10) إلى 50 سنة قبل الميلاد و قد تكون
أبعد من ذلك. أما الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله فيذكر في معلمته أن بقصر أولاد
حمال بتمنطيط كتابات على الجدران تدل على أنه بني قبل الهجرة بـ 105 أعوام
(11)

كثرت عمارة المنطقة بعد جفاف نهر قير في غضون القرن 4 هـ وابتداءً
من القرنين 5 و 6 هـ نزحت لها مجموعة من القبائل العربية من مختلف الأقطار
المغربية و الإسلامية و بخاصة من المغرب الأقصى نذكر من ذلك تمثيلاً لا
حصراً (12) قبيلة أولاد بن عبد الجليل التي حلت بالمنطقة سنة 501 هـ و في سنة
502 هـ جاء أولاد عباس ثم أولاد خير الله سنة 516 هـ ثم أولاد سيدي وعلي
البلبالي سنة 518 هـ و هكذا أما من العلماء و الأولياء فدخلها الشيخ مولاي سليمان
بن علي قادما من المغرب الاقصى في القرن 6 هـ و يقال أنه أول من حل
بالمنطقة من آل البيت و أول من أعاد تأسيس الزوايا و في سنة 815 هـ دخل
العالم أبو يحيى بن محمد و في سنة 845 هـ جاء السيد يحيى بن يدير أستاذ الشيخ
المغيلي و في سنة 862 هـ جاء السيد عبد الله بن أبي بكر العصنوني التلمساني و
في سنة 870 هـ على الأرجح جاء الشيخ المغيلي وبالجملة فقد عرفت منطقة توات
على مر التاريخ بأنها أرض أمان و إطمئنان "لا تتكأ ظالما و لا تمنع غانما و هي
أضعف بلاد المغرب قاطبة غالب اهلها ضعفاء متضعفون و لقلّة ضعف أهلها و
هضم قوة النفوس كثر فيها الصالحون و الزهاد و أرباب القلوب (13)" و هي
عوامل أساسية شكلت الشروط الأساسية و المواتية لقدوم العلماء و إستقرارهم بها و
مع مرور الأيام إزداد التواصل و تكثفت معه أشكال التفاعل الحضاري و من ثم
إنكبت النفوس على الطروس و راحت الأقلام تترجم الأحاسيس و المشاعر و من ثم
كان لنا هذا العمر الزاخر بالمؤلفين و المؤلفات و في شتى العاوم و المعارف و هو ما

الفضاء المغاربي _____ المخطوط المغاربي و إشكالية التحقيق المخطوط التواتي نموذجاً

أهل المنطقة بعد ذلك لأن تكون نقطة تواصل بين مختلف الشعوب المغاربية من جهة و بقية الشعوب الإسلامية في العواصم الإفريقية الكبرى خصوصاً في كانو، وشنقيط وأراوان وتمبكتوا وشهدت المنطقة توافد عدد كبير من المخطوطات عبر القوافل العلمية والتجارية من كافة الأقطار المغاربية عموماً والمغرب الأقصى خصوصاً ومنه يمكن تقسيم المخطوط في هذه المرحلة إلى قسمين: مخطوطات وفدت إلى المنطقة عبر قوافل العلماء والتجار وفي رحلات الحجيج وهذه المخطوطات تم نسخها جميعاً ولمرات عديدة وتمركزت في أقاليم الولاية الثلاثة وهذا القسم يشكل الجزء الأكبر من مخطوطات المنطقة الآن بنسبة تفوق 70% أما القسم الثاني فهو خاص بإنتاج علماء المنطقة وغلب عليه الطابع الفقهي والأدبي.

ومع بداية القرن السادس الهجري عرفت المنطقة إنشاء خزانات خاصة بالمخطوط يشرف عليها العالم المؤسس نفسه ويتولى ترتيب وصيانة مخطوطاتها بالإضافة إلى نسخ مخطوطات جديدة وقد بلغ عدد هذه الخزائن في القرن الثاني عشر هجري أكثر من 50 خزانة(14) أخذت منطقة توات الوسطى الحظ الأوفر في ذلك. وبنظرة بسيطة إلى هذا الموروث الثقافي الآن فإننا نجد أن إنتاج هذه المرحلة قد ضاع في معظمه من جملة ما ضاع من تراث المنطقة عامة وهذا بفعل عوامل الطبيعة القاسية أو بفعل عوامل الإنسان نفسه حيث يذكر كثير من أصحاب الخزائن الذين تحدثنا إليهم أن السلطات الفرنسية أخذت معها العديد من المخطوطات (15) ويكفي أن نشير هنا إلى أنه "قبل عملية النهب والضياع التي تعرض لها المخطوط في المنطقة والتي بدأت قبل القرن السابع عشر ميلادي كان يوجد 27 ألف مخطوط (16)" بينما لا نقف في آخر إحصاء لجمعية الأبحاث والدراسات التاريخية لولاية أدرار والتي شملت 29 خزانة إلا على 3 آلاف مخطوط شبه مفهرس وهذا من مجموع 12 ألف مخطوط أحصتها الجمعية.

الفضاء المغاربي _____ المخطوط المغاربي و إشكالية التحقيق
المخطوط التواتي نموذجاً

والحقيقة أنه إبتداء من سنة 1985 تاريخ إنطلاق المهرجان الثقافي الأول
للتعريف بتاريخ منطقة توات والذي خصص آنذاك للشيخ محمد بن عبد الكريم
المغيلي التلمساني دفين منطقة توات حالياً عرفت المنطقة حركة غير عادية في
مجال الإهتمام في المخطوط حيث في سنة 1987 أسست جمعية متخصصة لهذا
الغرض سميت جمعية الأبحاث والدراسات التاريخية وانضم لها مجموعة من
الأساتذة وشكلت فرق بحث انتشرت في كل ربوع الإقليم واوكلت لها مهمة جمع
المخطوطات وتحديد أماكنها وملاكها ثم لم تلبث أن أوهدت مجموعة من المختصين
إلى العواصم الإفريقية ومراكز المخطوطات بهذه الدول المجاورة وبخاصة مركز
أحمد بابا بتنكبكتو بمالي.

لكن جل تلك المحاولات في جمع المخطوط أولاً ثم تحقيقه ثانياً كما كان
مقررًا لم تر النور لسبب أو لآخر واكتفى أصحابها بتغيير مكان إقامتها فقط
باستثناء بعض أعمال الشيخ المغيلي التي جمعت وحقق البعض منها كمصباح
الأرواح ومناظراته مع الشيخ السيوطي جلال الدين أو بعض قصائده الشعرية
المختلفة.

و في منتصف التسعينات كان أول ملتقى للمخطوط في أدرار من تنظيم
وزارتي الإتصال و الثقافة و الشؤون الدينية و حضره أساتذ جامعيون ومختصون و
كان من اهم نتائجه تمكن بعض الأساتذة من الإطلاع على بعض نسخ
المخطوطات في محاولة لتحقيقها وكان لهم ذلك.

و قبل هذا و بعده زاد الإهتمام بمخطوط الإقليم محلياً و وطنياً و حتى
دولياً حيث زار المنطقة في نهاية التسعينات مركز جمعة الماجد للثقافة و التراث
بدمبي و جال بمعظم الخزائن و صور عدداً هائلاً من مخطوطاتها و خصص
للحديث عن ذلك مقالات عدة في مجلته المتخصصة (مجلة آفاق الثقافة و التراث)
و مع مطلع القرن الجديد إمتدت اليد الأوروبية ايضاً إلى المنطقة من خلال جمعية

الفضاء المغاربي _____ المخطوط المغاربي و إشكالية التحقيق
المخطوط التواتي نموذجاً

البحر المتوسط للمخطوطات و إنطلقت في مشروع موسع لحفظ و صيانة و فهرسة
المخطوط و أعدت لذلك برامج و لقاءات تكوينية خاصة من جهة كما كلفت بعض
المهتمين بفهرسة بعض الخزائن مقابل مبالغ مالية . و وصل بها الأمر أخيراً إلى
عقد ملتقى دولي للمخطوط بمدينة تيميمون حضره أخصائون من الجزائر و لبنان و
فرنسا.

و من الإهتمامات الوطنية بمخطوط المنطقة فهرسة و تحقيقاً ثم دراسة
نذكر هنا تمثيلاً لا حصراً كتاب مخطوطات ولاية أدرار للدكتور بشار قويدر
والدكتور مختار حساني ثم كتاب الدكتور مختار بوعناني في تحقيق و دراسة
مخطوط أبن أب (1160هـ) نيل المراد شرح لامية ابن المجراد في إعراب الجمل. و
قد قمت في إطار تحضير رسالة الماجستير بتحقيق و دراسة مخطوط هذا العالم
إبن أب أيضاً و المسمى شرح روضة النسرين في مسائل التمرين. كما نذكر
كتابات الأستاذ مبروك مقدم عن الشيخ المغيلي و أعماله من جهة و تحقيقه لبعض
المخطوطات من جهة أخرى كمخطوط أضواء على إقليم توات لمحمد بن عبد
الكريم (ت 1133 هـ) كما نذكر أيضاً من جملة الكتابات التي إهتمت بمخطوط
المنطقة كتابات الدكتور عبد الكريم عوفي لمجلة أفاق الثقافة والتراث بدبي العدد 34
السنة التاسعة و لمجلة معهد الحضارة الإسلامية بوهان العدد 1 سنة 1993. و
غير هذا و ذاك من الأعمال المحققة في هذا المجال والتي لا يسع المقام لذكرها.
و رغم كل هذه المحاولات المتعددة للتعريف بمخطوط منطقة توات أو
تحقيقه و دراسته يظل هذا الإرث بعيداً كل البعد عن أعين الدارسين و الباحثين وما
خرج منه إلى نور التحقيق و الدراسة لا يمثل إلا نسبة 1 في الألف و هذا بسبب
تراكم جملة من العوامل و الظروف نذكر من بينها :

- كون جل المخطوطات ملكية خاصة.

الفضاء المغاربي _____ المخطوط المغاربي و إشكالية التحقيق
المخطوط التواتي نموذجاً

- الوضعية الخاصة لبعض الخزانات و التي تكون فيها الملكية مشتركة بين أبناء القبيلة الكبرى.
 - إنعدام الثقة بين المالكين و الباحثين.
 - تصرفات بعض المحسوبين على الثقافة الذين إتخذوا من المخطوط وسيلة تجارية ليس إلا.
 - نفور عدد كبير من الباحثين عن ميدان التحقيق عامة.
 - بعد المنطقة عن بقية المراكز العلمية في الجزائر.
- و لتدارك ما امكن من هذه الثروة التاريخية و حفظها من الضياع أقترح من هذا المقام :
- عقد لقاءات تحسيسية محلية أو وطنية بين الباحثين و مالكي المخطوطات بهدف التعارف و تضيق الفجوة.
 - مناشدة المسؤولين و أولياء الأمر قصد تشجيع أصحاب الخزائن و تحفيزهم على التعامل.
 - عقد ملتقيات خاصة بالمخطوط و طرق حفزه و تحقيقه ودراسته
 - أنشاء فرق بحث متخصصة بالتعاون بين جامعة أدرار و بقية جامعات الوطن حيث تختار كل فرقة مخطوط معيناً في تخصص معين و تنبري لتحقيقه وفق المنهج العلمي.
 - فتح مشاريع للدراسات العليا تخصص فيها الأولوية للمخطوط تحقيقاً و دراسة و يكون هذا أيضاً بالتعاون بين جامعات الوطن.
 - تشجيع طلبة المعاهد على تحقيق المخطوطات في مجال مذكرات التخرج أو حتى بعض الأبحاث الخاصة.

الفضاء المغربي _____ المخطوط المغربي و إشكالية التحقيق
المخطوط التواتي نموذجاً

- التفكير في إنشاء بنك أو مركز مغربي معلوماتي موحد خاص
بالمخطوط المغربي يكون مقره في تلمسان على أن تكون له فروع جهوية داخل
الوطن و في شتى أقطار المغرب العربي.
و أخيراً أجدد شكري للقائمين على هذه المبادرة و الخطوة الجريئة نحو
إعادة كتابة واستكشاف ما أمكن من تاريخ مغربنا القديم و الحديث معا وفقكم الله
و سدد خطاكم و السلام عليكم و رحمة الله.

الفضاء المغربي _____ المخطوط المغربي و إشكالية التحقيق
المخطوط التواتي نموذجاً

هوامش

- (1) مخطوط نقل الرواة عن من ابداع قصور توات. محمد بن عمر بن محمد ص 4.
- (2) هو محمد بن عبد الله بن تومرت المعروف بالمهدي بدأت مبايعته على الخلافة سنة 515هـ توفي سنة 524هـ. الإستقصا لأخبار المغرب الأقصى أحمد بن خالد الناصري.
- (3) درة الأقالام في أخبار المغرب بعد الإسلام محمد بن عبد الكريم ص6.
- (4) المصباح المنير أحمد بن محمد الفيومي جزء 1 ص 108.
- (5) درة الأقالام في اخبار المغرب بعد الإسلام ص 6.
- (6) تاريخ السودان، تحقيق هوداس ص 7.
- (7) ذكر ذلك في مخطوط نسيم النفحات في ذكر جوانب من أخبار توات ص12.
- (8) التكرورية لغة أهل تمبكتو بأرض مالي.
- (9) التارقية لغة الطوارق من سكان الصحراء.
- (10) التسلسل الزمني لأحداث توات.
- (11) الموسوعة المغربية للأعلام البشرية و الحضارية.
- (12) ينظر محاضرة الشيخ محمد باي بلعالم (التعريف ببعض الجوانب من منطقة توات الجزائرية و حضارتها).
- (13) مخطوط درة الأقالام في أخبار المغرب بعد الإسلام محمد بن عبد الكريم ص 08.
- (14) لقد حاولنا إحصاء خزانات و مراكز المخطوطات بالمنطقة و توصلنا من خلال ستة سنوات من البحث من الوصول إلى 53 خزانة منها 14 خزانة بإقليم قرارة و 28 خزانة بإقليم توات الوسطى و 11 خزانة بإقليم تديكلت.
- (15) يذكر صاحب كتاب إقليم توات خلال القرنين 18 و 19 م فرج محمود فرج أسماء بعض هذه المخطوطات المتواجدة حالياً بالمكتبة الوطنية بفرنسا ص 93 و 101.
- (16) دليل ولاية أدرار 1999 ص 17 جمعية الأبحاث و الدراسات التاريخية.